السرقين والسماد في الزراعة قديماً

لم يكن علم الفلاحة ومعاناة الارض من العلوم التي انصرفت اليها في الشرق انظار العلماء والمؤلفين ، فلم يقم في الاقطار الزراعية كالشام ومصر والعراق والاندلس من انقطع الى الدرس والبحث في علم الفلاحة وعُني باذاعة تجاربه واسراره الا فيما ندر وقلّ . ومن راجع كتابي الفهرست وكشف الظنون وهما كل ما وصل الينا من اسماء الكتب والفنون لا يكاد يجد فيهما الا بضعة مؤلفات تدل على قلة عناية القوم بتدوين تجارب الزراعة . ومن اشهر المصنفات فيها :

— كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية . وفي دار الكتب المصرية الجزء الاول منه رقم ٣٩ في ٣٥ ورقة ، كتب في ٢٢ رجب سنة ٩٩٥

— كتاب الفلاحة اليونانية لقسطا او قسطوس بن لوقا الرومي ، طبع في المطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٩٣ للهجرة

— كتاب الفلاحة للروم لعلي بن محمد بن سعد ، ذكره ابن النديم .

— كتاب الفلاحة لابن العوّام الاشبيلي . طبع في مجريط (مدريد) سنة ١٨٠٢ وفي مصر .

— كتاب الدر الملتقط من علم فلاحتي الروم والنبط تأليف محمد بن ابي بكر ابن ابي طالب الانصاري الصوفي الدمشقي المعروف بشيخ حطين رقم ٢١ في مكتبة الدار المصرية ، فيه لغاية الباب التاسع والعشرين ٦٤ ورقة .

— كتاب بغية الفلاحين في الاشجار المثمرة والرياحين تصنيف السلطان الملك الافضل العباس ابن الملك المجاهد علي ابن الملك المؤيد داود ابن الملك المظفر يوسف ابن الملك المنصور عمر بن علي بن رسول . ناقص من آخره قليلًا . ذكر انه نقله واستخرجه من مطالعة الكتب المدونة في الفلاحات وسمّى منها الكتاب الموسوم بالاشارة في العمارة تصنيف والده ، وكتاب ملح الملاحة في معرفة الفلاحة لجده الملك الاشرف . وفي دار الكتب المصرية نسخة من بغية الفلاحين رقم ١٥٥ ، في ١٦٤ ورقة فيه الى الباب السادس عشر . وفي خاتمته فوائد زراعية بيّنة . ويظهر ان المؤلف توفي سنة ٧٧٨ للهجرة .

– كتاب الفلاحة المنتجة لطيبنا الجركلمشي من نسخة حسنة في دار الكتب المصرية رقم ٢١٩ في ١١٨ ورقة، وفي خزانة باريس نسختان منه رقم ٢٨٠٧ و ٢٨٠٨ .

– كتاب الفلاحة لابي عبد الله محمد بن الحسين رقم ٤٧٤٦ في خزانة باريس.

– كتاب مفتاح الراحة في علم الفلاحة رقم ٢٣٧ في مكتبة الدار المصرية ، واوراقه ١٨٩ ، واكثره منقول عن كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية .

– كتاب جامع فرائد الملاحة في جوامع فوائد الفلاحة لرضي الدين الغزي رقم ١٣٤ في دار الكتب المصرية ، ١١٧ ورقة وفيه فوائد كثيرة.

– الفن الرابع في النبات والزراعة والفلاحة في تسعة ابواب من كتاب مباهج الفكر ومناهج العبر لجمال الدين محمد بن ابراهيم بن يحيى الوراق المعروف بالوطواط . ومنه ثلاث نسخ في دار الكتب المصرية احداها مصورة في ثلاثة مجلدات رقم ٣٥٩. وهو ينقل عن ابن بصال في كتاب الفلاحة الرومية، وعن كتاب النبات لابي الخير الاندلسي؛ قال وهو غريب جداً لم اجد من رآه . وينقل احياناً عن كتاب ابن وحشية وكتاب الفلاحة المصرية.

– علم الملاحة في علم الفلاحة للشيخ عبدالغني النابلسي ، طبع في مطبعة نهج الصواب بدمشق سنة ١٢٩٩، اختصره من كتاب الغزي المتوفى سنة ٩٣٥ السابق الذكر .

– عمدة الصناعة في علم الزراعة لعبد القادر الحلاحي من القرن الثاني عشر.

وقد طالعنا كل ما وجدناه من هذه المؤلفات في دار الكتب المصرية فوجدنا كتاب ابن العوام اجودها واتمها واجدرها بالمراجعة والاعتبار . وقد استوفى فيه كل ما كان مألوفاً في زمانه من علاج الارضين وزراعة البقول والحبوب وغراس الاشجار وتربية الحيوانات والدواجن ، وروى كل ما يتعلق بهذه الابواب علماً وعملاً فهو خير ما يعتمد عليه في هذا الدرس وفيه فرائد وفرائد توضع عليها اليد وتعد ذخراً للزارع والاكار .

ومعلوم ان الاسمدة التي عدت اليها الكيمياء ونبهت على خصائصها وفضائلها في انعاش الاتربة وتعويض ما تفقده من المواد والقوى في تغذية

النباتات وتشير الاشجار لم تكن معروفة في اوروبة قبل القرنين الاخيرين فكان الأكرة ورجال الفلاحة لا يعرفون الا السرقين لاصلاح الارضين وازكاء الزروع ولذلك قال الخاركي :

لا اغرس الزهر الا في مُسَرْقَنةٍ والغرس اجود ما يأتي بسرقين (١

وقد فرّقت كتب اللغة بين السرقين والسماد فالسرقين هو الزبل والروث وحده. واما السماد فهو السرقين برمل وتراب. وجاء الدمالى بمعناه وبمعنى السرقين يقال دمل الارض اذا اصلحها او سرقنها ومن مزاعمهم في التقاليد المروية عن محمد بن علي بن عبدالله ان « اول من دمل الارض اي القى فيها السماد داود عم »(٢. وحكى الاصبهاني ان اول من جمع السماد بالبصرة وباعه هو عيسى بن سليمان بن علي العباسي من بيت الخلافة حينما كان امير البصرة « وكانت له محابس يحبس فيها البياح ويبيعه فقال فيه ابو الشمقمق :

اذا رُزق العباد فان عيسى له رزق من « أعجاز » العباد

فلما تزوج عيسى فاطمة بنت عمرو بن حفص قال محمد بن عُيينة في ذلك:

افاطمَ قد زُوّجتِ عيسى فأبشري لديه بذلٌ عاجل غير آجل
فانك قد زُوّجتِ من غير خيرة فتى من بني العباس ليس بعاقل
فان قلتِ من رهط النبي فانه وان كان حرّ الاصل عبد الشمائل . .
رأيت ابا العباس يسمو بنفسه الى بيع بياحاته والمباقل(٣

ولم ترد لفظة البيّاح في المعجمات ولا في تكملة دوزي . وانما جاء البياحة شبكة الحوت، وبعد طويل البحث والتنقير وُفّقنا للعثور على الحديث الآتي في كتاب البخلاء للجاحظ قال :

« حدثني ابرهيم عبد العزيز قال : تغديت مع راشد الاعور فاتونا بجام فيه بياح سبخي الذي يقال له الدرّاج فجعلت آخذ الواحدة فاقطع رأسها ثم اعزله ثم اشقها باثنين من قبل بطنها فآخذ شوكة الصلب والاضلاع فاعزلها وارمي باقي بطنها وبطرف الذنب والجناح ثم اجمعها في لقمة واحدة وآكلها »(٣.

١) معجم البلدان ٢ : ٣٨٨
٢) الاعلاق النفيسة لابن رسته ١٦٨
٣) كتاب البخلاء ١٦٤

ولا شك ان هذا الوصف هو وصف سمك كان بالبصرة تجمع رُذالته ونُفاياته وما يُرمى به من شوكه واضلاعه واطرافه وتحفظ في محابس لها حتى يغلب عليها العفن، فتُباع على البساتين كالسماد. ومن ثم تكون البياحات في حكاية الاصبهاني، المواقع التي يحبس فيها البياح والسماد. وهذا اقرب ما يبدو لنا في تفسير هذه الكلمة الغريبة.

وقد فاتنا لا محالة كثير من اختبارات الأكرة وارباب الضياع والبساتين وفنون علاجهم للارض وتنميتهم للبقول والازهار والاثمار. وتكفي مطالعة كتاب ابن العوام الآنف الذكر لمعرفة ما كان لبعض مصطلحاتهم وطرائقهم من الشأن والقيمة. ومن بعض الادلة عليها تنبههم الى ما في الدماء والابوال من القوة والدواء لاصلاح الارض لما فيها كما هو معلوم اليوم من الازوت والنترات فاشاروا بها لطب النباتات والمغروسات. قال ابن العوام: «وقد يُعالَج بعض ادواء النبات بدماء وابوال لان للدماء قوى عجيبة في انعاش بعض الشجر والنبات». [1] ولكن فاته ان ينبّه على وجوب تجفيف الدم قبل استعماله.

وقد راجعنا مقالاتهم في انواع السرقين والمفاضلة بين ذرق الحمام وارواث الخيل والبغال والحمير واخثاء البقر والجواميس وابعار الغنم والضان والمعز، فاذا افضل الازبال عندهم ذرق الحمام واختلفوا في ما يتلوه في الجودة فقدم بعضهم زبل الحمير على روث الخيل ثم زبل الغنم ثم زبل البقر. ونقلوا عن قسطوس احد علماء الفلاحة، وهو قسطا بن لوقا، انه قال: «احسن زبل الطير ذرق الحمام فبحرارته يميت الاعشاب ثم زبل الحمير ثم زبل الغنم ثم زبل البقر وانفع الازبال العامة للنبات زبل الخيل والهاذين.» [2] وهذا الرأي هو الشائع اليوم في تفضيل روث الخيل للمزروعات عامة.

وهنالك سرقين آخر اشادوا بجودته واجمعوا على ايثاره والمغالاة فيه وهو ما نستبيح القارئ اجمل العذر في التعريض به، وقد سبق الايماء اليه في بيت الشقق ويسمونه الروث الآدمي وزبل الناس. ومن غريب ما عُرف به ايضاً

---

١) كتاب الفلاحة لابن العوام، طبعة مدريد، ١٠٦

٢) » » » » » » ١٠٠

ولم نَرَهُ الا مرة واحدة اسم « قوسان » ، نقله ابن الاخوة في كلامه على حسبة الفاخرانيين والقصارين فقال : « يُشرط عليهم الا يَقدوا على الكوز بقوسان وهو روث الآدمي ولا بشيء من الازبال فانه نجس بل بالحلفاء والفيشة وهي قشر الارز وما اشبه »[1].

ومن اشهر اسمائه ايضاً الغائط والنجو والعَذِرة. وانما الغائط المكان المطمئن وكانوا اذا ارادوا الخلاء ينحدرون الى الغيطان اي بطون الارض تستراً وانتباذاً . وكثر ورود الغائط في كلامهم فانتقل اسمه الى الحَدَث نفسه واشتقوا منه الفعل تغوَّط ، كما انتقل اسم الحش وهو في الاصل البستان الى بيت الخلاء لانهم اعتادوا ان يتبرزوا في البساتين.[2] واما النجو فهو الارتفاع من الارض وكان الرجل اذا خرج لقضاء الحاجة يتستر بنجوة فقالوا من ذلك ذهب ينجو كما قالوا ذهب يتغوط اذا ذهب الى الغائط لذلك الامر[3]. واما العَذِرة فهي فناء الدار وكانوا اذا قضوا حاجتهم القوها في الافنية فأُطلق اسم المحل على الحالّ .

وفي اخبارهم عن هذا السماد الآدمي من النكات والمضحكات وهُجَن العادات والحكايات الغريبة ما يدخل في اوصاف الحضارة وتاريخ الفلاحة ولذلك لم نتوقف عن رواية بعضها بعد اطراح ما لا يجمل ذكره واستبدال ما يقبح التصريح به من الفاظه المبتذلة الفاحشة:

وقد عدّه ابن العوام بعد ذرق الحمام في الجودة والامتحان الارض والمنابت كلها[4] . ووصف ايضاً كيف يُعمل به قبل الاستعمال له فقال : « ينبغي ان يجفف من رطوبته الاولى حتى يهكل جفافه ويسودّ ثم يجعل في الخنازير ويرش عليه الماء العذب ثانية ويحرّك تحريكاً كثيراً ويخلط حتى يختلط ويجفّف حتى يجف جفافاً جيداً ثم يُخلط به رماد»[5].

---

١) معالم القربة في احكام الحسبة، طبعة كمبريدج، ٢٢٢

٢) النهاية في التعريض والكناية للثعالبي ٢٤-٢٥

٣) كتاب الحيوان للجاحظ ، طبعة مصر ١٣٢٣ ، ج ١ : ١٦٢-١٦٣

٤) كتاب الفلاحة لابن العوام ١٠٥

٥) » » » ١٠٥

وكان لاصحاب البساتين طلب عليه شديد وتنازع متواصل « فلا يعافون تسميد بقولهم قبل نجومها وتفتق بزورها ولا بعد انتشار ورقها وظهور موضع اللب منها حتى ربما ذرّوا عليها السماد ذرّاً ثم يرسل عليها الماء حتى يشرب موضع اللب قوى العَذِرة . بل من لهم بالعذرة وعلى انهم ما يصيبونها الا مغشوشة مفسدة وكذلك ضيهم في الريحان فاما النخل فلو استطاعوا ان يطلوا بها الاجذاع طلياً لفعلوا . »[1]

ومما يدل على الاعتقاد الشائع في اثر هذا السماد البشري نكتة رواها البلاذري عن معاوية بن مروان وكان محنقاً قال: « مرّ بحقل وقد سمع اهل الشام يقولون لا يفلح حقل لا يرى « عجز » صاحبه فنزل واحدث. »[2] ومن اهزل الابيات التي قيلت في هذا المعنى ما رواه ابو الفرج الاصبهاني قال :

« اجتمع جعيفران الموسوس ومحمد بن بشير في بستان فنظر الى محمد بن بشير وقد انفرد ناحية ثم قام عن شيء عظيم خرج منه فقال جعيفران.

قد قلت لابن بشير لما رمى من عجانه
في الارض تلّ سماد علا على كثبانه
طوبى لصاحب ارض « خلوت » في بستانه[3]

وكانت البصرة فيما قيل اشهر اسواق السرقين واميرها كما سبق كان من يتجر به « وللحشوش فيها اثمان وافرة ولها فيما زعموا تجار يجمعونها . فاذا كثرت جمع عليها اصحاب البساتين ووقفهم تحت الريح لتحمل نتنها اليهم فانه كلما كانت انتن كان ثمنها اكثر ثم ينادي عليها فيتزايد الناس فيها وقد قصّ هذه القصة صريع الدلاء المصري . . . ولذلك ذمّ الشعراء البصرة واهلها فقال محمد بن خازم الباهلي (في هجاء البصري) .

يشق « نجرَهُ » كيما ينالي به عند المباينة التجارا[4]

ومن النوادر المروية عن البصرة « دخل فتى من اهل المدينة البصرة

١) كتاب الحيوان ١ : ١١٦
٢) انساب الاشراف ٥ : ١٦٤-١٦٥
٣) الاغاني ١٣ : ١٤٠-١٤١
٤) معجم البلدان ١ : ٦٤٧

فلما انصرف قال له اصحابه : كيف رأيت البصرة ؟ قال : خير بلاد الله للجائع والغريب والمفلس. اما الجائع فيأكل خبز الارز والصحناة فلا ينفق في شهر الا درهمين. واما الغريب فيتزوج بشق درهم. واما المحتاج فلا عليه غائلة ما بقيت له « عجزه يُحدث ويبيع »[1] .

واشبهت اصبهان البصرة في نفاق الحشوش فيها « فان قيمتها عندهم وافرة » قال ياقوت : حدثني بعض التجار قال : رأيت باصبهان رجلًا من التُّنَّاء يطعم قوماً ويشرط عليهم ان يتبرّزوا في خربة له قال : ولقد اجترت به مرة وهو يخاصم رجلًا وهو يقول : كيف تستجيز ان تأكل طعامي وتفعل كذا عند غيري — ولا يكني — ولبعض الشعراء في ذم اصبهان واهلها ابيات قال فيها ان ليس للناظر في ارجاء اصبهان من نزهة تحيي القلوب غير اوقار العذرة[2]. ومن اقبح ما وُصف به ايضاً اهل اصبهان قول ابي القاسم البغدادي:

« يحملون « نجوهم » على رؤوسهم وعلى ظهور دوابهم الى بساتينهم فينتجسون به الانهار ويربّون به الثمار ويأكلونها. اي لعمري هو « نجوهم » منهم بدا واليهم يعود وهم احق به . بلدة حشرشها في المسابل وطرقها كالزوابل لا يوجد بها ذو كرم ولا نائل »[3].

وعيبت مدينة توزر في افريقية « بان اهلها يبيعون ما يتحصّل في مراحيضهم من رجيع الناس يفخلون به بقولهم وبساتينهم ولكنهم لا يرغبون فيه الا اذا كان جافاً فيحملهم ذلك على عدم الاستنجاء في مراحيضهم ويخرج احدهم من بيته حتى يأتي القناة فيستنجي من مائها وربما اتخذ احدهم المراحيض على قارعة الطريق للواردين عليها ليأخذ ما يتحصل من ذلك ويبيعه . »[4] ولذلك قال الجاحظ : « من اكرم سمادهم الابعار كلها والاخثاء اذا جفّت وما بين الثلط جافاً والخثاء وبين العذرة جافة ويابسة فرق »[5].

١) معجم البلدان ١ : ٦٤٧
٢) » » » ١ : ٢٦٤-٢٦٥
٣) حكاية ابي القاسم البغدادي ٢٢
٤) صبح الاعشى ٥ : ١٠٦
٥) كتاب الحيوان للجاحظ ١ : ١١٦

واقبح ما هنالك ما كان يجري في قابس « فان اكثر دورهم لا مذاهب فيها وانما يتبرزون في الافنية فلا يكاد احدهم يفرغ من قضاء حاجته الا وقد وقف عليه من يبتدر اخذ ما خرج منه لطعمة البساتين وربما اجتمع على ذلك النفر فيتشاحون فيه فيخص به من اراد منهم وكذلك نساؤهم لا يرين في ذلك حرجاً عليهن اذا سترت احداهن وجهها ولم يعلم من هي »[1] .

واشد ما كان الطلب على السماد في بغداد حتى بعث الطمع بعض اصحاب الزراع على احتكار ما كان يلقى على الكساحة والمزابل قال بعضهم : نزلنا داراً بالكرخ للكندي فكان في شرطه على السكان ان يكون له روث الدابة وبعر الشاة ونشوار الطوفة »[2] .

ولابن السَّنِير في بلنسية (Valence) وهي من اهم مغارس النارنج والبرتقال في اسبانية تطيف بها منها حدائق وبساتين مل. البصر :

بلنسية بلدة جنّة وفيها عيوب متى تُختَبَر
فخارجها زهر كله وداخلها بِرَكٌ من قَذَر[3]

ومن الغريب جدًّا ان يتنازع الناس الى هذا الحدّ القبيح اوقار الاقذار فهل كان سرقين الحيوانات دون الكفاية ؟ ولعل اقرب ما يعلّل به هذا الطلب الشديد ان الابعار والاخثاء كانت تجفَّف وتُدخر للوقود ولاسيما في البلاد التي قلّت فيها الاحراج والغياض وتعدّدت الحمامات كما اشار اليه صاحب كتاب البخلاء حيث قال : « اما الفرث والبعر فحطب اذا جُفّف عجيب »[4] ولا شك ان مثل هذه العادة كانت في الشرق معروفة شائعة منذ القِدم ولا تزال متّبعة في القرى والجبال الى اليوم وقد المح اليها الشعراء قال الهذلي :

وليلة يصطلي بالفرث جازرها يختصّ بالنَّفَرى المُثرين داعيها[5]

وللاخطل في احدى نقائضه :

١) معجم البلدان ٤ : ٤
٢) عيون الاخبار لابن قتيبة ٣ : ٣٥٩
٣) معجم البلدان ١ : ٧٢٢
٤) كتاب البخلاء ٧٨
٥) كتاب الحيوان ٦ : ١٦٦

صُفر اللحى من وقود الأدخنات اذا ردّ الرفادَ وكفّ الحالب القِرَرُ

يقول هم صفر اللحى من الدخان والادخنات السرقين والرفاد قدح ضخم والقِرَر جمع قرة وهي البرد[1] .

وفيما عدا الوقود للاصطلاء كان السرقين تحمى به الحمامات واتانين المَلّال صانع خبز الملّة وتنانير الخبز[2] . ومن مآثر طاهر بن الحسين انه رأى يوماً في قصره ببغداد « دخاناً مرتفعاً كريه الرائحة فتأذّى به فسأل عنه فقيل له ان الجيران يخبزون بالبعر والسرجين فقال : ان هـذا من اللؤم ان نقيم بمكان يتكلف الجيران شراء الخبز ومانائه اقصدوا الدور واكسروا التنانير واحصوا جميع من بها من رجل وامرأة وصبي واجروا على كل واحد منهم خبزه وجميع ما يحتاج اليه فسميت ايامه « الكفاية »[3] .

وعزم احد الخلفاء العباسيين على الشرب يوما واستنكف من رؤيـة الزجيج واستنشاقه بين ازهار البستان فزيّنت له انفته ان يستعيض عنه بما لا يخطر الا في اذهان الملوك وهو ما رواه التنوخي قال :

« اراد المقتـدر الشرب على نرجس في بستان في صحن دار من صغار صحونه فقال بعض من يلي امر البستان : سبيل هذا النرجس ان يسمّد قبل شرب الخليفة عليه بايام فيحسن ويقوى فقال هو : ويلك يستعمل « الزجيج » في شيء يحضرني وازيد ان اشمّه . قال : بهذا جرت العادة في كل ما يراد تقويته من المزروع فقال : وما العلّة ؟ قال : لان السماد يحييـه ويعينه على النبات والخروج قال : فنحن نحييـه بغير السماد . وتقدم فسحق من المسك بمقدار ما احتاج اليه البستان من السماد وسمّد به وجلس يشرب عليه يومـه وليلته واصطبح من غده عليه فلما قام امر بنهبـه فانتهب البستانيون والخدم ذلك المسك كله من اصول النرجس واقتلعوه مع طينه حتى خلصوا المسك فصار البستان قاعاً صفصفاً وخرج من المال شيء عظيم كثير في ثمن ذلك المسك »[4] .

١) النقائض، طبعة بيروت، ١٦٥

٢) كتاب الحيوان ١ : ١١٦

٣) معجم البلدان ٢ : ٢٥٦

٤) نشوار المحاضرة ١ : ١٤٤